

الحرب المقدسة في سفر القضاة روح الرب يجارب الظالمين

مقدمة

ثمة اتفاق بين النقاد المعاصرين على أن التاريخ في الكتاب المقدس عمومًا وفي مدرسة تثنية الاشتراع خصوصًا "ليس سردًا لأخبار غريبة أو تقارير لنقل ما حدث، ولكنه قراءةً نبويةً ولاهوتيةً للحياة تنطلق من الإيمان ومن الله"^١ لذلك من الأفضل اعتبار النصوص المسماة بالتاريخية سردًا إرشاديًا تربويًا أكثر منها تاريخًا بالمعنى الحديث للكلمة. يعرض سفر القضاة والكتاب المقدس كله الإيمان على أساس خبرة الإنسان مع نظيره ومع الله. ولكن سفر القضاة كان سببًا في محاولات تفسيرية مخطئة ومعرضة لأنها اعتمدت على مناهج علمي التاريخ والآثار للإجابة على معظم المسائل المطروحة في قضاة. أحاول في صدد هذا المقال تقديم بديل لهذه الطريقة التفسيرية المتناقضة في أصولها بغية فتح مقاربات جديدة تسمح للقارئ فهم سفر القضاة في إطاره الأدبي والقانوني. لذلك وبدلاً عن أن أعرض وصفاً لطقوس الحرب المقدسة وأن أحلل ملامحها، كما يرد في معظم الدراسات الكلاسيكية،^٢ نجد في هذا المقال وصفاً لوظيفة الحرب المقدسة في سرد القضاة وأهميتها بالنسبة إلى جماعة المؤمنين الذين يعتبرون هذا السفر "كلمة الله".

^١ GONZÁLEZ LAMADRID, A., "Historia deuteronomista", in: GONZÁLEZ LAMADRID, A. / CAMPOS SANTIAGO, J. (Ed.), **Historia, Narrativa, Apocalíptica** (IEB 3b), Estella, 2000, 71.

راجع أيضاً مقالة نقولا أبو مراد، "سفر القضاة بين التاريخ واللاهوت" في بيبليكا ٢٠٠٣/٢٠٠٢.

^٢ راجع على سبيل المثال:

DE VAUX, R, **Ancient Israel. Its Life and Institutions**, London, 1961, 247-267; Toombs, L.E., "War, ideas of", en: **Interpreter's Dictionary of the Bible IV**, New York – Nashville, 796-805.

الغيرة على العهد

تقول إحدى الطروحات اللاهوتية المحورية في سفر القضاة أن شعب الله، إسرائيل القديم، هو شعبٌ متمرّد، مخالف للشريعة "يعود ويعمل الشر في عيني الرب." ^٣ حسب قضاة، يرتكب إسرائيل الخطيئة عينها دائماً حيث يذهب وراء آلهة الشعوب التي سيطرت عليه. فعندما يقع بنو إسرائيل في العبودية، يضطرون أن يتبنوا تلك الاعتقادات الغريبة وأن يعبدوا البعلين والعشوت وكل إله يؤمن به الشعب الحاكم عليهم في المنطقة^٤، فيما كان الرب حرّهم من نير مصر لكي يكونوا أحراراً (خر ٣: ٧-١٠؛ ٦: ٦) ويعبدوا الإله الحقيقي^٥ (تث ٧) ويشهدوا له أمام كل الأمم (تث ٢٦: ١٦-١٩؛ ٢٩: ٢١-٢٨). بعبارة أخرى، إن الرب قد قطع عهداً مع شعبه ووعد حفظه إلى الأبد (تث ٧: ٩) ولكن إسرائيل كان يخالف هذا العهد مرةً تلو الأخرى. لذلك يعتبر سفر القضاة هذه المخالفة للعهد خطيئة إسرائيل الكبرى. وحيث أن هوشع النبي ومن بعده، يشبّه العهد القائم بين الرب وشعبه بالعهد القائم بين الزوج وزوجته^٦، يدخل واضعو سفر القضاة في هذا الخط النبوي فيسمون خطيئة إسرائيل زنى ضد الرب في بداية هذا العمل الأدبي^٦ لذا توجب على الرب أن يتدخل من أجل إنقاذ عروسه الحبيبة وتعليمها أن تتصرف بحسب العهد القائم. يتم هذا التدخل في سفر القضاة بواسطة رجال ونساء يحفظون غيرتهم على الرب ويخاطرون بحياتهم من أجل إخلاصهم له. هذه هي الحكمة الرئيسية في سفر القضاة ومنها نفهم النصوص التي تسرد الحرب المقدسة.

الرب يعتني بعروسه

إن المبادر في جميع الحروب التي يخبر عنها سفر قضاة هو الرب، إما لينقذ الشعب من الاستبداد (قض ٤: ٢؛ ١٠: ٧-٨) أو ليفتح لهم أرضاً للمكوث فيها (قض ١٨: ١-٦). لا نقرأ عن حرب تهدف

^٣ راجع قض ١٢: ٣؛ ١١: ٤؛ ١٠: ٦؛ ١٠: ١٠؛ ١٠: ١٣.

^٤ راجع قض ١١: ٢؛ ١٣: ٣؛ ٧: ٦؛ ١٠: ٧؛ ١٠: ١٠؛ ١٠: ١٠.

^٥ لم يُعتبر الزواج في العالم القديم كعهد بين طرفين متساويين، بل كانوا ينظرون إلى الرجل كالقائد والسيد (كان الزوج يسمّى بعلًا في العالم الشرقي القديم) وإلى المرأة كتابعة الرجل وخادمتها. ساهمت هذه المؤسسة الاجتماعية في تصوير الأنبياء للعلاقة بين الله وشعبه. أنظر مثلاً هو ٢: ٤-٢٥؛ إر ٢: ٣-١٠؛ ١٠: ٣-٥؛ حز ١٦: ١-٢٢. راجع أيضاً: أبو مراد، نقولا، مفهوم "العهد" في العهد القديم. دراسة تفسيرية انطلاقاً من صورتَي الزواج والأبوة في هوشع ٣-١١، في: أيوب شهوان/ أنطوان قسيس، دراسات في العالم الشرقي والتاريخ اللبناني. مقالات مهداة إلى الخوري بولس الفغالي، جونية، ٢٠٠٢، ٨٩-٩٨؛ طرزي، بولس، مدخل إلى العهد القديم. الجزء الثاني: التقاليد النبوية، بيروت، ١٩٩٨، ١٣٥-١٣٨.

^٦ قض ٢: ١٧. نجد هذه العبارة أيضاً مرتين في قصة أبيمالك في قض ٨: ٢٧: ٣٣.

إلى تدمير شعب ما لمجرد عدم معرفتهم للرب. إنَّما في حوار يعرض فيه الكاتب قراءته الخاصة لفتح أرض كنعان، يؤكد القاضي يفتاح مثلاً أنَّ إسرائيل كان دائماً يطلب إذناً للمرور عبر الملكات المختلفة ولكنهم كانوا دائماً يرفضون الطلب ولذلك رفع الله الميراث من هؤلاء وأعطاه لإسرائيل (قض ١١: ١٢-٢٨). فالله قام بالحرب فقط من أجل تحرير شعب مظلوم يحتاج إلى مكان يسكن فيه. إنه لأمر أساسي أن نفهم أخبار القضاة من هذه المقاربة. فلنلاحظ على سبيل المثال تشديد النصوص على الضيق الذي يعيشه الشعب المؤمن وعلى عجزهم في الدفاع عن أنفسهم (قض ٦: ١٥؛ ٧: ١٠-٩؛ ١٣: ١). كما وأنَّ النصوص تلمح إلى قلة عدد المقاتلين (قض ٧: ٢-٧) وإلى ضآلة قوتهم (٣: ٢٩-٣٠). كذلك تتحول كل معركة إلى "خروج جديد" يختبر فيه الشعب المؤمن خلاص الله. حول هذا المحور المركزي يدور السرد في قضاة لكي يُظهر للقارئ أن على إسرائيل أن يسكن بين الأمم لكي يمتحن ويعرف العمل الخلاصي في كيانه (قض ٢: ٢٠ - ٣: ٦).

في كتابات الشعوب الأخرى في الشرق الأدنى القديم نجد حروباً مقدسة ولكن الرب في العهد القديم يختلف عن الآلهة الأخرى لأنه لا يأتي كمساعد لقوات الملك ولا كشريك في النصر^٧ بل على العكس، الرب في قضاة هو الوحيد الذي يحارب والذي ينتصر. الانتصار للرب وحده. وإذا تناسى إسرائيل هذا واعتقد أنه بقوته الخاصة حصل على النصر، فالرب ينظر إليه كأمة غريبة فيؤدبه ويقاصه كأنه شعب أممي خاطئ. كذلك الأمر إذا كان إسرائيل يتكل على آلهة أجنبية، فإما يدمره أو يسلمه لنير ملك غريب ومستبد^٨ يعود كل ذلك إلى أن إنكار إسرائيل لتدخل الرب يجعله مخالفاً للعهد المنعقد فَيُبطِل دوره كمخاطب للرب ليصير أمةً أخرى لا تعرف الله. لا يوجد في العهد القديم سفر آخر يعبر بهذا الفن السردى الجلي ما عبّر عنه ناظم المزامير عندما يقول: "هؤلاء بالمركات، وهؤلاء بالخيل. أما نحن فاسم الرب إلهنا نذكر. هم جثوا وسقطوا، أما نحن فقمنا وانتصبنا" (مز ٧: ٢٠-٨).

⁷ بالرغم من اعترافه بأهمية معونة الإله آمون، يشدد رعمسيس الثاني في صلاته بمناسبة معركة قادش (١٢٨٥ ق.م.) على مقدرة جيوشه وقواته، فالإله آمون يعاون الفرعون وليس العكس. هكذا أيضاً يرفع نبوكدنصر الثاني، ملك بلاد الرافدين بين ٦٠٥-٥٦٢ ق.م.، دعاءه إلى الإله شماش ويطلب منه تقوية الأسلحة للانتصار على الأعداء. راجع نصوص هذه الصلوات في: *Équipe Cahiers Evangile, Prières de l'Ancien Orient* (DB 1), Paris, 1979, 37.73-75.

⁸ راجع خيانة أيبملك لأبناء يربعل في قض ١٠: ٦-٩ وتدخل الرب في ٢٢-٢٣ الذي يسبب موت أيبملك في ٥٠: ٩-٥٧. في قض ٣: ١٢-١٤؛ ٦: ١٠؛ ٧: ١٠؛ ١٣: ١ نقرأ أن الرب نفسه أرسل الضيق على إسرائيل. أنظر أيضاً المقطع ثث ٨: ١٧-٢٠ حيث يرد الفكر اللاهوتي عينه للذي في قضاة

الرب هو من يُرسل الاستبداد والتحرير في رواية القضاة، هو من يسود على إسرائيل والأمم فيتجلى إلهًا واحدًا حقيقيًا بالرغم من عناد إسرائيل الذي يرجع فيعبد آلهة الغرباء. إذن، القصص "الحربية" في سفر القضاة تؤكد أنّ إله إسرائيل وحده هو الإله الحقيقي والعملي حتى لو تمرد إسرائيل وأخطأ كما يخطئ كل بشر إزاء مشيئة الله.

الرب يسود على كل الشعوب

إن سفر القضاة هو سفر الشهادة لقوة الرب التي تتراءى في روحه. لاحظ النقاد بحق تكرار العبارة "روح الرب"، ست مرات في كل السفر وفي مواقع حاسمة. فبالفعل، نرى أن القوة المعطاة من الرب لجدهون تسمح له أن يحقق عمله الإنقاذي (قض ٦: ١٤ و ٣٤). هذه القوة تحل أيضًا على عثنيئيل ويفتاح في قض ٣: ١٠ و ٢٩: ١١ على التوالي. هناك شمشون أيضًا الذي اختبر روح الرب منذ صغره (قض ١٣: ٢٥) وقبل المعركة الحاسمة (قض ٦: ١٤ و ١٩؛ ١٤: ١٥).

أضف إلى هذا الحضور الملح لروح الرب في الرواية، أنّ القضاة المختارين لا يليقون بالعمل المطلوب لا من حيث أصلهم ولا من حيث ميولهم الدينية السابقة، فنفهم أن البطل الوحيد والحقيقي في سفر القضاة هو الرب. لنذكر على سبيل المثال أنّه كان لأبي جدعون مذبح مكرّس للإله بعل (٦: ٢٥-٣٢) وأنّ اسم شمجر بن عناة، القاضي المذكور باختصار في قض ٣: ٣١، يشير إلى أنّه كان من أصل كنعانيّ. وأيضًا أنّ يفتاح، أحد القضاة الكبار، طرد من مصفاة جلعاد لأنه كان ابن امرأة زانية وكان قائد عصابة رجال بطالين قبل أن يُدعى ليحارب أبناء عمون من أجل إسرائيل (قض ١١: ١-٣). وأخيرًا وفي هذا الإطار نذكر أنّ ملامح شخصية شمشون تشير إلى أصل كنعاني للرواية وإلى علاقتها بالأساطير حول الشمس: فاسمه يعني "الشَّمْس" والمواضيع الأساسية في القصة تدور حول "القوة، الشعر، الأسد، العسل، والعمى"^٩. كما يجدر ذكره أنّ أحد القضاة الأشهر كان امرأة اسمها دبورة وهذا أمر غريب في مجتمع ذي طابع بطريكيّ.

^٩ NOËL, DAMIEN, *Les origenes d'Israël* (C.E. 99), Paris, 1999, 33

هذه "النخبة" من القضاة العائدين إلى أصل وثني وخطي تتطابق تماماً مع الوعد لابراهيم بأن يجعله الرب أباً لسائر الأمم (تك ١٢: ٣). منذ البدء يبدو الإيمان بيهوه إيماناً مفتوحاً على كل ساكني الأرض. لا بل الرب يظهر لكل الأمم الظالم كالسيد المرعب والمسيطر الذي يضمن النصر لإسرائيل الصغير. هكذا تروي قصة هروب سيسرا قبل أن يواجه باراق (قض ٤: ١٤-١٥) أو قصة انتحار المديانيين والعمالقة وهروبهم قبل معركتهم مع جيوش جدعون الضعيفة (قض ٧: ٢٢). سيادة الرب على الأمم قوية بهذا المقدار أنه بإمكانه تأمين الغلبة قبل المعركة. هكذا نقرأ أيضاً في الرواية التمهيدية لمعركة يهوذا ضد الكنعانيين (قض ١: ١-٤). باختصار، إن إله القضاة لا يعمل لصالح عُرق ما ولا لصالح وجهاء قبائل ما، بل يختار من بين كل الشعوب أناساً عاديين وخطاة لكي يتمموا العهد وينالوا المواعيد، مهما كان أصلهم أو جنسيتهم.

في نهاية هذا المقطع يجدر الإشارة إلى فقدان مفهوم الحرام في سفر القضاة (في العبرية: حيريم). نجد أن الوزن حرم وجميع مشتقاته يغيب عملياً عن نصوص الكتاب. هذا يعود أولاً إلى أن سفر القضاة لا يخبر عن فتوحات الأرض بل بالأحرى عن دفاع ساكني الأرض. مع ذلك، هناك مقطعان يعودان إلى اليد التحريرية الأخيرة (قض ١: ١٧ و ١١: ٢١) حيث يرد شكل من أشكال الوزن "حرم". في التاريخ المدون من مدرسة تثنية الاشتراع كان دائماً القصد الأول للحرام أن يقدم الشعب لله نتائج النصر معترفين بأن لله وحده السلطة والمجد. هكذا تعلم رواية يشوع بن نون ٦ - ٨ التي تذكر قوانين الحرام والمخالفة المرتكبة من قبل عخان بن كرمي التي أدت إلى هزائم كبيرة لإسرائيل. من هنا نفهم لماذا أسقط باراق كل جيش سيسرا بحد السيف ولم يبقَ ولا واحد (قض ٤: ١٦) أو لماذا حرم يهوذا وشمعون سكان صفاة (قض ١: ١٧)^{١٠}.

^{١٠} تجدون دراسة مفصلة عن الحرام في العهد القديم في: DE VAUX, R, *Ancient Israel. Its Life and Institutions*, London, 1961, 260-261.

الخاتمة

يتّضح من هذا البحث القصير أن استقراء التاريخ البشري لشعب اسمه إسرائيل انطلاقاً من سفر القضاة هو عمل شاقّ قد يبقى عاقراً ودون ثمار. لم يكن في قصد واضعي سفر القضاة، كما أستنتج، أن يعرضوا أحداثاً بشريةً بل أن يرشدوا الشعب في الإيمان على أساس قراءتهم الخاصة جداً للتاريخ التي تُظهر عمل الله المحسن والمنعم من أجل خلاص المُعَوِّزين مهما كان أصلهم أو جنسيتهم.

إن الأخبار عن الحروب المقدسة التي يرويها سفر القضاة المختصرة البسيطة بالنسبة إلى الوقائع والأعمال، تتوقف باهتمام دقيق على الأفكار اللاهوتية وتشدد على أنّ الرب يغار على من يدعو باسمه القدوس ويعتلن إلهاً يحارب الشرّ ويقف دائماً مع المتألمين لكي يفتديهم ويمنحهم الخلاص.